ولاء الروح للمقدس المكاني عند الشيخ أبو مدين الغوث "فلسطين أنموذجا"

أ د زهرة لحلح

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية قسنطينة

الملخص بالعربية:

تنصرف مادة مداخلتنا الى معالجة مسالة ولاء الروح للمقدس أي موقف الاتجاه الذوقي تجاه الأماكن والقضايا المقدسة ونقصد بها هنا مكانة القدس في الارتفاقات الذوقية عند الشيخ أبو مدين الغوث من حيث طبيعة تحيز المكان في المنازع الروحية الذي فارق بخ تجريدات النخيل الى تحققات الواقع يشهد لهذا مشاركته مع جيش الناصر صلاح الدين في تحرير بيت المقدس مقدما يده الشريفة مهرا لها فقد بثرت يده غي تلك المعركة مبليا بلاء شديدا استحق به هو مجاربي المغربي العربي حارة المغاربة كعرفانا قدمه الناصر صلاح الدين للمغاربة

summary

focuses on the issue of the spirit's loyalty to the sacred, that is, the attitude of the aesthetic orientation towards sacred places and issues. Here, we refer to the status of Jerusalem in the aesthetic practices of Sheikh Abu Madyan al-Ghawth, specifically regarding the nature of the place's bias in spiritual pursuits, which moved

beyond abstract notions of palm trees to the realities of the present his participation with Saladin's army in the liberation of Jerusalem, offering his noble hand as a dowry for it. His hand was severed in that battle, displaying great valor, for which he, the Maghrebi Arab, earned the title of "Maghrebi Quarter" as a token of appreciation from Saladin to the Maghrebis

المقدمة:

إن الحديث عن ولاء الروح للمكان المقدس عند الشيخ أبو مدين الغوث يحيلنا إلى الحديث عن دور المتصوفة وانخراطهم في قضايا الأمة والأخطار المحدقة بعيدا عن التنظيرات الذوقية والتحليقات المجردة، وهذا يعني بالضرورة ارتباط أعلام التصوف بثوابت العقيدة ومسؤولياتهم تجاه حفظ الأمانة التي ارتبطت بها همة القطب والغوث أبو مدين بولاء روحه للمقدس المكاني وموضوعه فلسطين حيث ارتبط ذلك الولاء بقدسية المكان ليس على مستوى المخيال الصوفي فحسب بل قيادة لرباطات ومرابطات الجنود بمعركة حطين في مشاركته لذود عن شرف الأمة أمام هجمات الصليبيين بقيادة الناصر صلاح الدين هو والكثير من أتباعه زهادا أو عبادا فأبلى بلاء حسنا كلفه بتر ذراعه الشريفة التي خطت دور الجناح الروحي في الإسلام في رهانات الأمة باسترخاص الروح فداء لحياض الإسلام وولاء لقدسية المكان وتحريره من دنس الصليبيين ولذلق البلاء فقد جاز المغاربة من بركات ذلك المقدس حارة بالجانب الغربي لبيت المقدس أسكنهم بها الناصر صلاح الدين الذي أوقف وقفية خاصة لهم إلى حدود هذا الكلام نصل إلى إشكالية الدراسة على النحو الموالي:

الإشكالية:

ماهية علاقة المقدس المكاني بقضية القدس وكيف استخدم ولاء الروح للمقدس المكانس في الدفاع عن بيت المقدس عند القطب أبو مدين الغوث؟

I –ترجمة الشيخ أبو مدين الغوث:

اتفق المترجمون على أن اسم الشيخ هو شعيب كما ورد اسم أبيه في أغلب المصادر باسم شعيب بن الحسين أما التنبكتي فقد ذكر اسم والده الحسن أما محمد حجي فقد انفرد بموسوعته باسم جد أبي مدين ذاكرا أنه شعيب بن الحسن بن أسعد الأندلسي، أما عن كنيته فبدا أنه كني بهذا الاسم تيمنا بالقرية التي كانت بها البئر الذي سقي منها موسى عليه السلام لبنات شعيب على ضفاف البحر الأحمر وبالإضافة إلى هذه الكنية فقد اشتهر أيضا لقب أبو مدين بألقاب أخرى لها صلة وثيقة بمكانته وتصوفه ومنها الغوث وشيخ الشيوخ، وشيخ أهل المغرب وعرفه ابن عربي بأبي النجا وعدا هذا يعرف أبو مدين بسيدي بومدين وقيل أيضا أنه تكنى بابنه مدين صاحب الفضائل والأحوال المحمودة[1] .

أما عن نسبة فتعرف أحوالا كثيرة منها الأندلس والاشبيلي والقطنياني والبجائي والتلمساني والمغربي، كما عرفت نسبته بالأنصاري نسبة إلى أصل عائلته لقبيلة الأنصار التي استوطنت بعض فروعها في منطقة الأندلس أما شعيب الموسوي فيذكر النسب الحسيني لأبي مدين شعيب بالاعتماد على مخطوطات عائلية لأحفاد أبو مدين شعيب قائلا[2]: «شعيب بن محمد بن عمر بن علي بن عثمان بن الحسين الفاسي بن محمد بن موسى الأشهب بن يحيى بن عيسى بن علي التقى بن محمد المهتدى بن علي المنتخب بن الإمام جعفر الزكي بن الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن أمير المؤمنين وسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

---

[1]–محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، [بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1996م]، ج1، ص 385 نقلا عن مواسيم يونس، حمزة عبد الصمد، أبو مدين قطب عارفين أضواء جديدة طول حياته وحقائق حول معالم رحلته [مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، المجلد السادس، العدد الثاني، 2023]، ص 249.

[2]–حسين أبو سعيد الموسوي، المجشر الوافي: القسم الثاني في السلسلة الرضوية [بيروت: مؤسسة البلاغ]، ص 182.

أما عن سنة ميلاده فقد تراوحت بين تواريخ عديدة فذكر بعضهم أنها كانت سنة 4982هـ قبل سنة 520هـ بينما يجمع ابن قنفد القسنطيني وأحمد بابا التنبكتي وابن مريم التلمساني أن رفاته كانت سنة 594هـ وإن كان ابن عربي يشير في الفتوحات المكية إلى تاريخ آخر لوفاته وهو سنة 589م [1].

لقد كان الشيخ أبو مدين الغوث أصغر إخوته حيث توفى والده الحسين وهو صغير السن في مرحلة مبكرة من حياته وهو من أسرة فقيرة حرمه إخوانه من التعليم وألزموه برعاية الأغنام على الرغم من شغفه بالعلم إلا أن نفسه لم تكن لتطاوعه في هذا المورد بل كان تواقا للتعبد وقراءة القرآن الكريم ومطالعة علوم الشرع خاصة وهو يرى الناس يتلون كتاب الله وهو بعيد عن هذا الشرف لا يحفظ شيئا من القرآن الكريم الأمر الذي عزز لديه قرار الفرار وقد كان ذلك عبر محاولتين باءت الأولى بالفشل أما الثانية فقد تمكن من إقناع أخواته بالمغادرة حسب ما يروي هو عن نفسه حيث بيت النية على الفرار ليلا وتم له ذلك فأدركه أخاه وعزم على قتله بالسيف فتلقى الإمام الغوث ذلك السيف بعود فكسر ذلك السيف وتطاير وهنا أطلق سراحه ليذهب أينما أراد[2].

ومنها انطلق الشيخ في رحلته العلمية من مسقط رأسه إلى المغرب الأقصى ثم إلى المشرق الإسلامي إلى غاية استقراره في بجاية حيث توجه في بادئ الأمر إلى طنجة ثم غادرها إلى سبته ليواصل بعد ذلك رحلته إلى مراكش ومن ثم إلى فاس التي كانت تعج بالعلم والعلماء حيث كان دائم التردد على مجالس العلماء إلى أن استقر به المقام عند الشيخ ابن حرز من كبار الفقهاء والزهاد ذا علم بالفقه والحديث والتفسير وبعد أن تزود الشيخ أبو مدين بعلوم الظاهر تطلعت همته لتقى علوم الباطن أن التصوف فكان أول من أخذ عليه علم التصوف فهو الشيخ أبو عبد الله الدقاق الذي كان يفتخر بتدريس أبي مدين هذا بالإضافة إلى الشيخ أبا يعزي بلنور الذي فتح عليه بسنده في التصوف الذي أخذه عن أبي يعزى بسنده عن ..... عن الحسن البصري عن علي كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم[3].

---

[1]–النبهاني، جامع كرامات الأولياء، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض [بيروت: المكتبة الثقافية، 1991م]، ج1، ص 121 وانظر مواسيم يونس،...أبو مدين بن شعيب قطب العارفين...، ص 251.

[2]–التادلي، الشوق إلى رجال التصوف، تحقيق: أحمد توفيق [الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1984م]، ص 254.

[3]–علي بن إسماعيل التادلي، المعزى في مناقب أبي يعزي، تحقيق: علي الحاري [الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 1996م]، ض 278

بعد رحلته الشيخ إلى المغرب توجه إلى المشرق بغرض تأدية فريضة الحج حيث مر بالمغرب الأوسط فلأدنى وصولا إلى مصر معبر الحجيج إلى مكة أين التقى بالشيخ عبد القادر الجيلاني سنة 550هـ هذا بالإضافة إلى التقائه بغيرهم من العلماء استفاد من زهدهم وولايتهم وبعد أن قضى أبو مدين الغوث مدة كبيرة بالمشرق عاد إلى المغرب الإسلامي قبل سنة 560 م متوجها إلى مدينة فاس التي لم يطل مقامه بها التي كان تفرض على المتصوفة رقابة شديدة خوفا من ثورتهم وانشقاقهم عليها خاصة بعدما تعرض للمضايقات فقرر الرحيل إلى بجاية أي كان الوضع مستقرا حيث عرفت المدينة وطيلة حكم الحماديين والموحدين نشاطا ثقافيا وبها نال حضوة كبيرة ووردت عليه الوفود وانتصب للإفادة والتدريس بمسجد أبو علي الزواوي وظل على نشاطه إلى أن استدعاه السلطان الموحدي أبي يعقوب المنصور بوشاية من أعدائه فأمر بحمله إلى المغرب فسار به إلى الموكب وصل إلى منطقة العباد "تلمسان" فمرض هناك وتوفي[1].

لقد مكان الإمام الغوث علامة فارقة في التصوف في منحى التصوف السني القائم على الجمع بين الشريعة والحقيقة بمعية تامة لأسرار العبادات بغية استغراقه للجانب السلوكي والعملي في الحياة الذوقية قاعدة كل تغيير سواء كان على المستوى الفردي أو جمعي وهو منهج التصوف السني الذي استقى أسراره بطريق الإمام الجيلاني عبد القادر على نسق التوليف بين التصوف والفقه على مسلك الغمام أبي حامد الغزالي مما سمح له تنقية الحياة الروحية من البدع والانحرافات ليلامس واقع المجتمع ونوازله فنفخ روحا جديدة في جسم الأمة بغية معالجة مشاكله ويستيقظ على الأخطار الذي تهدده وأولها الغزو الصليبي وهو ذات العدو الذي هبت الوفود الصوفية من كل بلاد الإسلام من أجل المرابطة على ثغور القدس ورأسهم الإمام الغوث أبو مدين بن صاحب الطريقة المدينية التي انتشرت بالجزائر وسائر بلاد المغرب العربي لتعرف نشاطا وانتعاشا كبيرا على يد أبي الحسن الشاذلي تلميذ ابن مشيش لتعرف بعدها بالطريقة الشاذلية [2].

II-المقدس المكاني

1-المكان:

---

[1]-بوبه مجاني، أبو مدين شعيب وشيخه أبو يعزى من خلال كتاب المعزى في مناقب أبي يعزى، [قسنطينة: مجلة الأمير عبد القادر، العدد16، المجلد 02]، ص 177.

[2]-لحلح زهرة، الائتمان المقدسي بمسرى رباطات التصوف المغاربي [أبو دين الغوث أنموذجا]، قسنطينة، مجلة المعيار مجلد 28، عدد33، 2024]، ص 124-125.

المكان عند الصوفية جاء تعريفه أنه: «المنزلة التي هي أرفع المنازل عند الله وهو المشار إليه بقوله تعالى: **[فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ]** [القمر: 55] »[1] كما تعرف عندهم بأنه عبارة عن منزلة في البساط لا تكون إلا لأهل الكمال الذين تحققوا بالمقامات والأحوال وجاوزها إلى المقام الذي هو فوق الجلال والجمال فلا صفة لهم ولا نعت [2] .

وبهذا التحديد الرمزي لمفهوم المكان مما سبق أعلاه نجده يدل على فضاء مفارق عن الإطار الدلالي المتداول بحيث يقف كبديل عرفاني يجمع بين اللغة والخيال الصوفي يعاد من خلاله التوازن بين المعنى المجرد للمكان كوضع وحيز حقيقي والمعنى الرمزي المدرك بأسلوب آخر هو العرفان أين تتحول عناصره التكوينية إلى علامات محيلة إلى اللامتناهي بوصفه أرفع الأماكن فعلى قدر تحقق الذات الصوفية ...العرفانية تمتد شساعة المكان ويشعر في نفسه أنه أهل لامتلاكه والتصرف فيه باستقدامه أو بالرحلة إليه يقول أدونيس: «الصوفي جوهر مبثوث في الوجود كله ذلك لا تحده الجهات بل الجهات تصدر عنه ولا يحيطه به المكان بل هو الذي يحيط بالمكان»[3][4] وعليه نجد الصوفية في معاجمهم يعبرون عن المكان تارة بأنه مكان متخيل يجوز فيه ما يستحيل في غيره وتارة هو المكان الواقعي الحقيقي الذي تجري فيه أحكامهم والذي يكون هذا حاله يقولون عنه صاحب المكان ومرة يستحضرونه بوصفه يحيل إلى المنزلة التي يبلغها أله الكمال المتحققين بالأحوال والمقامات وهذا لأنهم يعتبرون المكان له خصوصية في المخيال الصوفي لا كبقعة جغرافية محدودة بأبعاد فيزيقية بل هو أصبح يشكل برمزيته فضاء الاتساع والانطلاق والكمال بل هو يتجاوز حتى نواميس المكان الطبيعي.

2-المقدس:

المقدس في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية القداسة صفة كل ما هو مقدس أو طاهر» ويذهب العديد من الكتاب إلى انصراف مصطلح المقدس إلى جهاز مفاهيمي غربي مخالف للنظام المفاهيمي العربي الإسلامي لكننا إذا عدنا إلى كلام العرب نجد المقدس يرتبط بثلاث معاني وهي التنزيه والتطهير والتبرك فقد

---

[1]-عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، [القاهرة، ط1، دار المنار للطباعة والنشر، 1992م]، ص 108.

[2]-رفيق العظم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، [بيروت، ط1، مكتبة لبنان، 1999م]، ص 932.

[3]-أدونيس، الثابت والمتحول، [بيروت، ط2، دار العودة]، ص 97.

[4]-طارق ريناي، صورة المكان في المخيال الصوفي [مجلة الخطاب، مجلد 13، عدد1، 2018م]، ص 188، 199

جاء في القرآن الكريم **[وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** [البقرة: 30]] كما يرتبط مفهوم القداسة بالذات الإلهية **[هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ]**[الحشر: 23]

أما في التصوف فالشيخ والولاية والكرامة كلها مفاهيم تتغدى من قداسة الأنبياء والوحي والمقدس كفعل إرادي ذاتي يكتسبه الإنسان بمجهوده الخاص وهي طريق أولياء الله الذي تمكن لهم المقامات والأحوال من الوصول إلى الحقيقة المعبر الموصل للقداسة وحينها يرتكز الفضاء الصوفي على جملة من المقدسات ....للمخيال الصوفي وأبرز مصطلحاتها البركة فبركة المكان تطال كل شيء يدخل حيز المكان حتى الحصارة والقماش والماء » [1].

III- دور الشيخ أبو مدين في الذود عن بيت المقدس:

إن من أوضح وأوكد دلالات قيمة المكان المقدس في مسارات الروح وأفعالها عند الشيخ هو عدم انسحابه من شرف الدفاع عن أرض بيت المقدس رفقة تواجد متصوفة الغرب الإسلامي في مناطق الثغور الحدودية

فهم المجاهدون والمرابطون خاصة على عهد صلاح الدين الأيوبي أين انخرطوا كمحاربين أساسيين وكمرافقين للجيش أيضا ندروا أنفسهم لأخطر الهجمات في سبيل تحرير بيت المقدس حيث بلغ عددهم في جيش صلاح الدين ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف شخصا مقاتل سنة 853هـ أما بموقعة حطين فقد مثل المتطوعة من المتصوفة أكثر من 10 آلاف جندي وهي ذات المعركة التي شارك بها الشيخ أبو مدين الغوث والتي انتصر فيها جيش صلاح الدين الأيوبي انتصارا كاملا على الصليبيين وفتحت من خلالها مدينة القدس في العام نفسه أين كان للقطب الشيخ أبو مدين دورا هاما في حيثيات المعركة أين كان يقوي عزائم الجند ويحض على الجهاد ولأجل ذلك فقد بالغ صلاح الدين في إكرام المغاربة والمتصوفة وأسكنهم بيت المقدس فجعل سكنهم بيت المقدس بجانب الحائط الغربي للمسجد الأقصى فكانت لهم حارة المغاربة كوقف سنة 583هـ وقد تابع الأفضل نور الدين ابن الناصر صلاح الدين متابعا لسيرة والده في العناية بالمغاربة حيث أوقف قرية عين كارم غربي القدس وهو المكان نفسه الذي تقوم عليه الجامعة العبرية وقرية

[1]-بغدادي خديجة، المقدس في المؤسسة الطرقية، [وهران، مجلة أبعاد، مجلد 10، العدد 01، 2023]، ص 328.

إيوان ولا زالت صورة الوقف محفوظة في سجلات المحكمة الشرعية في بيت المقدس لكن قوات الاحتلال الإسرائيلي سيطرت عليها سنة 1948م [1]وسجلت اليونسكو كل من الباحث الأكاديمي الدكتور زعيم خنشلاوي المخصص بأنثروبولوجيا الاديان بمعية الباحث الفلسطيني الدكتور محمد الحزماوي من خلال كاتب وقف سيدي أبو مدين إلى تسليط الضوء على دراسة علمية أبرزت كيفية تسيير حبوس وأوقاف الجزائريين بمدينة القدس.

وتذكر المصادر التاريخية أنه تم إنشاء أوقافا وزارية من قبل أحد أحفاد الإمام الغوث أبو مدين شعيب عام 720هـ وقد اتسمت تلك الأوقاف باسم الجد الإمام الغوث وهكذا توسعت حارة المغاربة وامتدت مساحتها لأزيد من خمسة وأربعين الأف هكتار وابتداء من حائط البراق وتذكر ذات المصادر وفود شخصيات أخرى من تلمسان إلى القدس بقيادة محمد العشعاشي سنة 1952 في مسعى الحفا على الحارة وأوقافها وكذلك ترسخ التأثير الصوفي الجزائري التلمساني في المشهد السياسي كتجربة العفيف التلمساني[2].

الخاتمة:

في ختام بحثنا نصل إلى النتائج الآتية:

1-يعبر المقدس المكاني عند المتصوفة عن تلك العلاقة الذوقية التي تتجاوز الحيز الجغرافي إلى مجموعة من التمثلات القائمة أساسا على التحول والمقامات.

2-ارتبط القطب أبو مدين بالمقدس المكاني على الوجه الذي جمع من خلاله المخيال الصوفي والانخراط الواقعي في جموع المرابطين وجيوش النصرة بقيادة صلاح الدين في معركة حطين.

3-لقد انتصر ولاء الروح الشيخ أبو مدين لقضية فلسطين جسده واقع حارة المغاربة و...العزة والمرابطة.

قائمة المصادر والمراجع:

---

[1]-عبد الحكيم مرتاض، أبو مدين شعيب ....العباد بتلمسان، حقائق جديدة حول غياب المعالم الزمنية في سيرته [مجلة قرطاس، الدراسات الفكرية والحضارية، المجلد (08)، العدد (02)، 2021]، ص 20-21 وانظر الموقع:
https://.mexss.radioamgerie.dz/ar/mode/2443q

[2]-لحلح زهرة، الائتمان المقدسي، ص 123-124.

1. أدونيس، الثابت والمتحول، [بيروت، ط2، دار العودة].

2. بغدادي خديجة، المقدس في المؤسسة الطرقية، [وهران، مجلة أبعاد، مجلد 10، العدد 01، 2023].

3. بوبه مجاني، أبو مدين شعيب وشيخه أبو يعزى من خلال كتاب المعزى في مناقب أبي يعزى، [قسنطينة: مجلة الأمير عبد القادر، العدد16، المجلد 02].

4. التادلي، الشوق إلى رجال التصوف، تحقيق: أحمد توفيق [الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1984م].

5. حسين أبو سعيد الموسوي، المجشر الوافي: القسم الثاني في السلسلة الرضوية [بيروت: مؤسسة البلاغ].

6. رفيق العظم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، [بيروت، ط1، مكتبة لبنان، 1999م] .

7. طارق ريناي، صورة المكان في المخيال الصوفي [مجلة الخطاب، مجلد 13، عدد1، 2018م].

8. عبد الحكيم مرتاض، أبو مدين شعيب ....العباد بتلمسان، حقائق جديدة حول غياب المعالم الزمنية في سيرته [مجلة قرطاس، الدراسات الفكرية والحضارية، المجلد (08)، العدد (02)، 2021، وانظر الموقع:

9. عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، [القاهرة، ط1، دار المنار للطباعة والنشر، 1992م]

10. علي بن إسماعيل التادلي، المعزى في مناقب أبي يعزي، تحقيق: علي الحاري [الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 1996م].

11. لحلح زهرة، الائتمان المقدسي بمسرى رباطات التصوف المغاربي [أبو دين الغوث أنموذجا]، قسنطينة، مجلة المعيار مجلد 28، عدد33، 2024].

12. محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، [بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1996م].

13. مواسيم يونس، حمزة عبد الصمد، أبو مدين قطب عارفين أضواء جديدة طول حياته وحقائق حول معالم رحلته [مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، المجلد السادس، العدد الثاني، 2023].

14. النبهاني، جامع كرامات الأولياء، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض [بيروت: المكتبة الثقافية، 1991م].

https://.mexss.radioamgerie.dz/ar/mode/2443q